المنثـــــــــــور والمنظوم

أيهما أسبق الى الوجود؟

بقلم الأستاذ السباعى السباعى بيومى

مدرس الادب العربى بدار العلوم

أظنه من الملائم فى هذا البحث أن يعرض المتصدى له أولا وقبل كل شىء للمعنى العام الذى يفهم من كلتا كلمتى: نثر ونظم، حتى إذا جلاه وأبان عنه، وجعل الفارق بين المعنيين واضحاً ملموساً، عمد إلى هذا الفارق يحاكمه إلى الطبيعة، ويستهديه القول، فاذا هو الحكم الفصل والحق المبين. وأظنه من السهل محاولة ذلك، مادامت كل كلمة فى ظاهر لفظها تمدنا بالمعنى الذى ينبغى أن يكون الوجه فى التفرقة والعامل على التمييز، وأن ماعداه من مدلولات ليس إلا ضمائم متممة لها، انحازت إلى أحد الجانبين، وظهرت فيه بمظهر المختص الملازم لا تعدو أن تكون شركة بينهما غير ناهضة وحدها أن تصلح فصلا؛ فما هو ذلك المعنى البارز الذى تحمله كل كلمة، والذى من أجله قدمنا تلك التقدمة، وله صدرنا هذا التصدير؟ هو — بلا إجهاد فى الفكرة، ولا إطالة فى التعبير — أن يلتزم الشاعر فى شعره وزناً وقافية يجعلانه مقيداً منظوماً، ويتحرر منهما الناثر فيجيء كلامه مطلقاً منثوراً. وإذن، النثر أبسط من الشعر، وفى الشعر كلفة ليست فى النثر، والنثر أقرب منالا، ورجاله أكثر عدداً، والشعر أصعب محاولة، والشعراء آحاد فى أوساط الناس؛ وهنا نسأل نواميس الطبيعة والكون وعوامل النشوء والارتقاء: أيهما لذلك يجب أن يكون أسبق كوناً، وأقدم وجوداً؟ فيكون الجواب — لامحالة — ما أجبنا به آنفا من أن النثر أسبق من الشعر.

وليس انحيازنا فى التفرقة بين النثر والشعر إلى جانب اللفظ دون المعنى، لأنا لانعبأ بالمعانى، أو لأنا نسوى بينهما فيها؛ فما يجهل أقل الملمين بالأدب أن الشعر يعتمد على الخيال أكثر مما يعتمد على الحقيقة، وأنه يستوحى الشعور أكثر مما يستوحى الفكر، على عكس النثر فيهما؛ ولكن مهما أغرقنا فى التفرقة المعنوية، فليس فى استطاعتنا أن نباعد بين الخيال والنثر، ولا بين الشعر والحقيقة؛ فكم نثر أوغل من شعر فى التخيل والتصوير، والتعبير عن الوجدان والشعور؛ وكم شعر هو وعاء الحكمة والفلسفة، وأدخل فى باب التفكير منه فى باب الخيال؛ إنما انحزنا الى جانب اللفظ للابانة عن وجه التسمية بالنثر والنظم، وأنها لم تك عبثاً؛ ولم تأت اعتباطاً

إنما وضعها الواضعون عن بصيرة وفكر، لتكون خير معبر عن الفارق ، وأوضح مترجم عن التميز. نعم عطف الواضعون على النظم فوضعوا له اسما آخر هو الشعر ، إشارة منهم إلى أن الوزن والتقفية — وإن وقعت بهما المفاصلة والمخالفة — ليسا وحدهما المكونين للشعر ، بل لابد أن يغلب على معناه الشعور ، حتى يكون اغترافه من ينابيع العاطفة والخيال أكثر مما يغترف من ينابيع الحقيقة والتفكير .

يقول المخالفون في الفكرة: إذا كان النثر أسبق من الشعر ، فما بالنا نجد للأمم القديمة شعراً ولا نجد لها نثراً ؟ ولكن فاتهم أن تلك قضية لا نفهمها كما أصدروها ، ولا نستسيغها كما هيئوها إلا إذا سلمنا لهم بقضيتين أخريين كلتاهما أبعد عن العقل من الأخرى .

فأما أولاهما فانهم يعنون بالأمم القديمة ـ أول ما يعنون ـ اليونان والرومان ، فينفون عنهما النثر ويستبقون الشعر ، كأنما كل أفراد هاتين الأمتين أو أفذاذهما كانوا شعراء ، وكأنما لم تهيىء أحوالها الطبيعة — والأولى أمة فلسفة ومنطق ، والثانية أمة تقنين وتشريع ، ثم هما معا أمتا حكم وفتوح — أحدا من رجالاتها ليدافع عن فكرة، أو يعلل لقانون، أو يدعو الى حرب ودفاع ؛ وهلا كان الأسير مع العقل والأطوع للفكر أن يقولوا: كان لهما نثر وشعر، ولكن الشعر كان قليلا، والقليل محروص عليه، فوعته الأفهام وتناقلته الرواة في وقت تفشو فيه الأمية وتندر أو تنعدم الكتابة التي تتسع لقيد النثر ، ثم الشعر مع ذلك أيسر حفظاً وأكثر ذيوعاً؟ نعم كان لهم أن يقولوا ذلك فيقبل القول ويستقيم الاستنباط ويكونوا بذلك منطقيين كما يدعون.

وأما الثانية فانهم يريدوننا على أن العرب في جاهليتها لم يك لها نثر، وأن ما أثر عنها موضوع مختلق ؛ وهذا لعمري تهجم على العقل، ومطالبة لنا أن نكون أمامهم أشباح أناسي لا أناسي ذوي عقول؛ وإلا فكيف لم يك للعرب في جاهليتها نثر، وقد تحداهم القرآن الكريم فيه، ووصفهم بأنهم كانوا قوماً لداً « واللدد في اللغة شدة الخصومة والحاجة » تمشياً مع ما هو مقرر معروف من أن التحدي لا يحتفظ بكيانه، ولا يكون له قوامه إلا إذا وقع لكل أمة في الباب الذي تزعم فيه نبوغاً، وتدعي لنفسها عليه قوة واقتداراً؟ وإذا كان الأمر هنا كما يقولون، أفما كان الأجدر بالقرآن أن ينزل كما نزلت سائر الكتب قبله بلغة لا يرتفع فيها الى ذروة الفصاحة كما ارتفع حتى يكونوا أفهم لمعانيه وأقدر؟ وقد نزل لهم على الانتفاع بما حواه، ثم يلتمس النبي للتحدي منحى آخر غير الفصاحة والبيان؟ وإذا أبى المخالفون إلا الفصاحة والبيان فان في مقدورنا ـ مجاراة لهم ـ أن نقول كان ينبغي لذلك أن ينزل القرآن شعراً لا نثراً؛ لأنهم لا زالوا يدينون لبعض الجاهليين بالقدرة على قول الشعر، لولا أن في تلك المجاراة هدماً لما لا نرتضي ولا يرتضون؛ فقد جرد الله نبيه من أن يكون شاعراً كما جرده من أن يكون كاتباً، وباعد بين القرآن والشعر، فأعجز به منثوراً أمة ذات قدرة فائقة على النثر ، وقد أثر عنها منه ما يؤيد تلك القدرة ويشهد بها؛ ولكن ضاع معظمه

وبقى القليل خضوعاً لسنة الكون فى الاضاعة والابقاء، ولامحل إذن للشك فى هذا القليل؛ إنما الوجه فى الشك كان يتأتى اذا كثر أو باد.

ويقولون أيضاً إن فى عوام الأمم الحديثة من يقول الشعر بلغاتهم، بينما لا يحسن أحدمنهم النثر؛ وهذا قول لا يسلم به من يختلط بطبقات العوام، ويرقب عن كثب مجرى أحاديثهم ومحاوراتهم؛ فان فى عوام المصريين مثلا سماراً تدار حولهم الحلقات، وترهف اليهم الأسماع، فلا يزالون يلقون من عذب الحديث وجميل القصص ما لو كان هناك تدوين للغتنا العامية لكان فى الذروة من نصوصها والقمة من آدابها؛ وإن فى تراشق امرأتين تختصمان فى أحقر الأزقة وأدنأ الحارات لروعة لهذا الخصام وقوة بيان لمناحيه لا تقل عن مثيلاتها فى محاورة أو منافرة مما دون للغة الفصحى مثالا لقوة العارضة وآية على الاقتدار. وهل تجردت حياتنا العامة من حوادث تدفع ذا زعامة ورياسة أن يحرض ويستنهض أو يخوف ويسترجع، وذا قرابة ولحمة أن يوصى ويرشد ويعظ ويذكر؟ أم هل خلت عاميتنا من حكم وأمثال تضارع فى قوة المعنى وشدة الايجاز نظائرها القديمة، وتحل من قلوب السامعين الآن المحل الذى كانت تحتله تلك فى القديم؟ بلى لم تخل فى نثرها من شىء هو لنثر أختها العربية؛ ولكن كثرته واقتدار السواد عليه صرف الأذهان عن تناقله وروايته إلى شعرها الذى خلا من كثير مما حواه الشعر الصحيح، فقل قائلوه واستخدم دون النثر فيما كان أبقى له وأدعى إلى حفظه من حداء وغناء، مع مافى طبيعته، فضلا عن تلك الحاجة وهذى القلة من سهولة الحفظ وسرعة الاستذكار.

ثم هم يقولون: إن الشعر وجد قبل النثر، وحين ضاقت أوزانه عن مظاهر العقل تحلل الانسان منه إلى المنثور؛ ومعنى هذا — إن كانت لنا عقول — إن العقل الانسانى فى طفولته كان قديراً على أن يعبر عما يريده بهذا الكلام الموزون المقفى، ولكنه بعد أن ترقى وجاوز دور الطفولة والأدوار التى أعقبته فتم نضجه واستوى، ارتد عاجزاً عما كان عليه قديراً، ولجأ فى تعبيراته إلى الكلام المطلق من قيد التقفية والوزن. ياله حكما عليه من أولئك المخالفين! إلا أن يعاند الطبيعة وما اتفق عليه الناس مرغمين، دون أن يكون لهم إلى الخلاف فيه لو أرادوه سبيل؛ ولسنا ندرى أيذكرون نتيجة لهذا أن الانسان خلق متحضراً ثم تبدى؟ أم يزعمون أن اللغة وحدها شذت عن هذا الناموس العام، أو أن الشعر على فرض سهولة التقفية والوزن خلو من كل منطق وتفكير؟ الحق أنا لا ندرى عنهم ماذا نقول، فالشعر بالغا مابلغ من تصور وخيال لا غنى له فى ذلك وفى مراعاة وزنه وقافيته عن عقل يسدى وفكر يهدى، فما بالنا إذا كان بالفلسفة ناطقا ولأدق نزعات العقل مصوراً؟ وقديما شبهوه بالدر المنظوم، وما كان النظم بغير مجهود وتدبير، وقالوا: «إن من الشعر لحكمة» وما خلا منها منذ عرف فى سالف الحقب وسابق الزمان.

بقيت قالة أخيرة حملهم عليها التسليم ببعض الواقع هى قولهم: إنا نقصد بالنثر المتأخر عن

الشعر النثر الفنى؛ ولكنهم فى عجز أو تعاجز عن تحديد هذا النوع الذى يريدون، لأنهم إن أرادوا بالفنية الاجادة التى نطالعها فى أنواع المنثور من حكمة ومثل وخطبة ووصية ومفاخرة ومنافرة، على أن يسلموا للجاهليين فى ذلك بما هو مأثور، قلنا لهم: إن النثر قد بلغ إذن قبل الاسلام درجة تفوق فى مداها وقوة فصاحتها ماوصل إليه الشعر إذ ذاك، وإن تلك الدرجة ما كانت لتكون دون أن يضرب النثر فى القدم إلى قرون ينعدم فيها الشعر، أو يكون طفلا يحبو، بينا النثر قائم يجرى على قدمين؛ هذا إلى ماقدمنا من السنة القاضية بسبق البسيط على المركب، واليسير على العسير، وماتلاها من مناقشة مايقولون؛ فان أنكروا هذا المأثور كما يدعون رددنا عليهم هذا الانكار بما لا سبيل لهم معه إلى كلام؛ ذلك أنهم يعترفون بما ورد عن صدر الاسلام من كل هذه الأنواع، ثم يعترفون مع ذلك بما لها من فنية فائقة على هذا الاعتبار كما يتضح ذلك فى كلام رسول الله والصحابة وسائر المخضرمين؛ فهل كان هؤلاء جميعا قبيل الاسلام من الفهاهة بحيث يزعمون، ثم انقلبوا بين عشية وضحاها ثرثرين مهرين؟ إنا ننتظر منهم الجواب.

أما إذا حددوا الفنية بالكتابة وأساليبها وصناعة الانشاء ونظمها مما يسوق اليه تحضر الامم ويدفع به تقدم العمران، فان فى ذلك التحديد انصرافا بهم إلى ما انصرف اليه الناس؛ وإذن فلا جدة ولا خلاف؛ ولكنهم يأبون فى هذا — شأنهم فى غيره — إلا أن يكونوا مخالفين وذوى جديد!

السباعى السباعى بيومى

المجلد الاول

توجد من المجلد الأول مجموعات، ترسل المجموعة الواحدة منه
خالصة أجرة البريد بالسعر الآتى:—
٢٠ قرشاً صاغاً لمصر والسودان
٣٠ قرشاً صاغاً للخارج
وكذلك توجد نسخ من الأعداد السابقة وثمن العدد الواحد ٣٥ مليما.